

سؤال الحداثة وإعادة بناء العقل العربي من جديد "قراءة في تجربة
محمد عابد الجابري"

Read in "Question of modernity and rebuilding the Arab mind again
"the experience of Muhammad Abed Al jabri

عالم حبيب طالب دكتوراه

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- جامعة جيلالي اليابس – الجزائر

Habibalem45@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/06/30	تاريخ القبول: 2020/05/31	تاريخ الارسال : 2020/ 04/30
-------------------------	--------------------------	-----------------------------

ملخص :

تهدف هذه الورقة البحثية إلى طرح سؤال جريء ومهم، يتعلق الأمر بسؤال الحداثة الذي ظل يشوبه اللبس والغموض، لاسيما عندما يتم تداوله في الوسط الفكري والثقافي العربي والإسلامي، بحيث تم معالجة إشكالية الحداثة والتحديث من منطلقات مختلفة تزينت بألوان أيديولوجية بامتياز على مر قرن من الزمن، وضمن هذا الإطار يقدم الراحل محمد عابد الجابري مساهمة نوعية في معالجته للتراث العربي الإسلامي نقدا وتمحيصا، لإعادة إحياء الجانب المستنير فيه، ليصبح معاصرا لنا على صعيد الفهم والمعقولية، انطلاقا من بعث عقل جريء بإمكانه كشف المسكوت عنه وتحليل المعطيات التراثية تحليلا أيديولوجيا نقديا، والغاية من هذا كله تشييد حداثة يتطلع لها الإنسان العربي منذ زمن، وبالتالي تحقيق الحلم، أي الحلم بالهضة، إلى واقع معاش.

الكلمات المفتاحية : الحداثة ، العقل ، التراث ، النهضة ، الأيديولوجيا.

Abstract

The paper aims at asking a bold and important question, which concerns the question of modernity, which has remained ambiguous, especially when it is being traded in the arab and Islamic intellectual and cultural milieu, so that the problem of modernity and modernization has been dealt with from ideological points over a century. The late Mohammed Abed Al Jabri, in his address to the arab Islamic heritage In cash and in a bid to revive it again, is a new mind that can reveal the heritage data in a critical Epistemology analysis, all of which is a modern construction to which the arab human has long been looking for.

mot clé : Modernity , Mind , Heritage , Revival , Epistemology.

مقدمة

يعتبر مفهوم الحداثة من المفاهيم الملتبسة في الساحة الفكرية العربية المعاصرة، نظرا لما أحدث من ضجة فكرية وإعلامية في موطنه الأصلي "أوروبا" ولعل هذا اللبس والغموض الذي يكتنف مفهوم الحداثة راجع إلى موطن الظهور وبداية تشكل هذا المفهوم في السياق الدلالي الغربي، إذ ارتبط هذا المفهوم بالشك والقلق داخل الإنسان الحديث.

وإذا كانت الحداثة هي ظهور ملامح المجتمع الحديث المتميز بدرجة معينة من التقنية والعقلانية والتعدد والانفتاح، في إطار ما يسمى بالنهضة الغربية، هذه النهضة التي جعلت المجتمعات المتطورة صناعا تحقق مستوى عالي من التطور مكنها من السيطرة على الطبيعة وتحقيق وتأسيس حضارة صلبة وريادية في مختلف المجالات.

ليأتي الدور بعد هذا على الأمة العربية الإسلامية التي حاولت هي الأخرى لَمَّ شتاتها، وترتيب تراثها عبر إعادة قراءته من جديد وتحيينه مع الراهن، حتى يتموقع من جديد في هذا الزخم المعرفي والحضاري الذي لا

يعترف إلا بالأقوى، وعليه فمناقشة مسألتي الحداثة والتحديث في الفكر العربي المعاصر هي المغذي الأساسي لهواجس التغيير، على هذا الأساس يمثل الجابري⁽¹⁾ إطاراً معرفياً استفزَّ الكثير بكتاباتهِ وذلك شأن أي فكر غايته زعزعة الثوابت، من منطلق أن الحرية الملتزمة بوابة التقدم والتحضُّر، ففلسفة مسكونة بروح الراهن، كفيلة بتحقيق الإقلاع الحضاري، وذلك هو الهم المشترك الذي كانت ولا زالت هواجسه تجعل الأقلام تختلج باختلاج الأفتدة، والعقول المتقدمة، المتطلعة إلى غد أفضل للأمة العربية.

وغالبا ما ارتبط مفهوم الحداثة والتحديث في الوطن العربي بمفهوم النهضة وإعادة قراءة التراث من جديد، سواء عبر الإستفادة من المناهج والآليات التي فرضتها العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي صنعت المشهد الثقافي والفلسفي بأوروبا، أو إعادة قراءة التراث انطلاقاً من التراث في حد ذاته. وكل هذا سببه التجديد في التراث، وتشديد حداثة عربية إسلامية، للتموقع والتمركز في الحضارة العالمية المعاصرة.

وعليه إن مفهوم الحداثة كان ولا يزال محل جدل وصراع في الساحة الفكرية العربية الحديثة والمعاصرة لأننا نختلف كلياً في تحديد معنى دقيق

¹ - هو مفكر وفيلسوف مغربي ولد يوم 27 ديسمبر 1935 بمدينة فجيغ شرق المغرب، وفيها أتم دراسته الابتدائية، تحصل على أول دكتوراه دولة في الفلسفة بالمغرب، وقد دار موضوعها حول فكر ابن خلدون تحت عنوان: "العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي" عُرف في الوطن العربي بكتابه الشهير: "نحن والتراث" كممهد لمشروع نقد العقل العربي، ثم واصل بعد ذلك سلسلة التأليف خاتماً أعماله الفكرية بمدخل إلى القرآن الكريم سنة 2006، إلى أن وافته المنية يوم: الإثنين 03 مايو 2010. أنظر: الشيخ محمد، محمد عابد الجابري "مسارات مفكر عربي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص: 07.

للحداثة والتحديث، إذ تم التطرق الى موضوع الحداثة من زوايا مختلفة وبمناهج متنوعة في مبناها ومعناها، ولعل أول مفهوم صادفنا عندما كنا بصدد تحقيق مطلب الحداثة هو مفهوم التراث، الذي أصبح يعج بالقنابل الموقوتة، وقد حاولت بعض الأطراف والمدارس الفكرية الوقوف على هذا التراث ومعالجة قضاياها إنطلاقاً من أيديولوجية معينة، باعتبار أن هذه الفترة المعاصرة هي فترة صراع ومعارك أيديولوجية.

قبل الخوض في هذه التيارات التي أرادت أن تلج عالم الحداثة انطلاقاً من المسوغ التراثي وإعادة بناءه علينا أولاً أن نضبط مفهوم التراث وما المقصود به ؟

وردت لفظة التراث في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: { وَتَأْكُلُونَ
التُّرَاثَ أَكْلًا مِّمًّا } سورة الفجر الآية - 19 -

التراث في هذه الآية يُقصد به الميراث، وتأكلون التراث بمعنى تستولون على الميراث، وعليه فالبنية الدلالية لهذا المفهوم تختلف تماماً عن المفهوم المعاصر للفظه التراث.⁽¹⁾

أما حالياً أصبح مفهوم التراث ذا حمولة فلسفية، يقصد به الموروث الثقافي والفلسفي والديني والأدبي والفني، وهو المضمون الذي تحمله هذه الكلمة داخل خطابنا العربي المعاصر، ملفوفاً في بطانة وجدانية أيديولوجية، وتجدر الإشارة هنا أن صاحب سفر " نقد العقل العربي " يستعمل لفظ

¹ - التويجري عبد العزيز، التراث والهوية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، المغرب، (د.ط.)، 2011، ص: 12.

التراث استعمالاً نهضوياً، مادام يعتبر من المفاهيم الموظفة داخل الخطاب النهضوي الحداثي العربي المعاصر.⁽¹⁾ 192

من خلال هذا الكلام ندرك أن لفظة التراث أصبح يتم استدعاؤها عند كل محاولة جادة في الحديث عن الحداثة والنهضة العربية، إذ أصبح مفهوم التراث يُكَيَّف حسب التوجهات الأيديولوجية لكل مفكر أو مدرسة فلسفية مهما كانت طبيعتها، وعليه يمكن القول أن التراث مع المفكرين العرب المعاصرين أصبح يمثل الإنتاج الفكري أو التركة الفكرية بدل التركة المالية، والتراث هنا لا يعدو أن يكون مفهوماً نهضوياً يمثل تراكم ثقافي وحضاري لكل أمة، ويُعتبر بوابة الإنطلاق لكل حداثة أو نهضة شاملة هدفها التغيير والإصلاح والتجديد.

والآن ننتقل إلى المناهج والدراسات المعاصرة التي تناولت موضوع التراث قراءة وتحليلاً واستشرافاً لتأسيس حداثة عربية إسلامية، وعقل بديل إجرائي يستطيع إخراجنا من دوامة التخلف والإنحطاط، ولقد أشار الجابري إلى بعض هذه الدراسات التي تناولت موضوع التراث وبين ضعفها الأبيستيمولوجي ومحدوديتها على صعيد المنهج والرؤية. وأول هذه الإتجاهات هو:

الإتجاه السلفي: "العقل السلفي"

يرادف مفهوم السلفية في الفكر الإسلامي المعاصر، مفهوم النزعة الأصولية، ونزعة التجديد والإصلاح الديني إلى غير ذلك من التسميات التي

¹ - الجابري محمد عابد، التراث والحداثة "دراسات ومناقشات"، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص: 23.

يمكن أن يعثر عليها الباحث المهتم بأدبيات الفكر العربي المعاصر، ورغم أن تعدد التسميات يدل على قلق المفهوم في الكتابة العربية المعاصرة، فإنه يمكن حصر الدلالات المرتبطة به والتي تعبر عن فحواه.⁽¹⁾

والإتجاه السلفي هو ذلك الإتجاه الذي يمجّد الماضي بكل تفاصيله، ويتغنى بأمجاده ويعتبره المنطلق الوحيد لكل حداثة مستقبلية للأمة العربية، ذلك أن هذه الأمة عجزت عن اللحاق بالركب الحضاري لأنها فرطت في ماضيها، ولن يصلح حالها ويتبدل، إلا بالعودة إلى التراث وتبني أسسه ومبادئه.

والمنهج السلفي بهذا المعنى هو منهج إنتقائي، يسعى إلى تأكيد الذات أكثر من سعيه إلى شيء آخر وفي هذا الصدد يقول الجابري: " وهو في الأعم الأغلب منهج خطابي يمجّد الماضي بمقدار ما يبكي الحاضر ومن هنا تظل الذات الذي يريد تأكيدها هي ذات الماضي الذي يعاد بناءه بانفعال تحت ضغط ويلات الحاضر وانفعالاته".⁽²⁾

وهنا يقدم الجابري رأيه بكل وضوح، ويرى أن هذا الإتجاه السلفي ضعيف إيستيمولوجيا، كونه يسعى إلى بناء حدائته انطلاقاً من الماضي الذي يحمل صفة القداسة عند ممثلي هذا التوجه، وبالتالي الانتصار لهذا المنهج يكون من باب الحماسة الأيديولوجية والإنفعال الوجداني العاطفي، وهكذا يُغيب دور العقل وتتلاشى الموضوعية، وتضيق الرؤية لأننا سنرى الحداثة العربية من زاوية واحدة فقط، إنها زاوية الماضي وعليه فهذا التوجه

¹ - عبد اللطيف كمال، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1992، ص: 27.

² - الجابري محمد عابد، التراث والحداثة "دراسات ومناقشات"، المصدر السابق، ص: 42.

يدعو إلى تكريس الرؤية الماضوية التي يرى فيها الحل الوحيد والرشيد لتحقيق النهضة المنشودة.

ولا يكون هذا إلا عبر استدعاء عقل قياسي " قياس الغائب على الشاهد " ويُقصد به ذلك العقل الذي يقيس ويستند على قضايا ماضوية، ويحاول إسقاطها على أرض الواقع دون فحص أو اجتهاد، ويؤكد الجابري أننا أمام قراءة أيديولوجية، ووسيلة لتأكيد الذات، فهذا المنهج أصبح يُقرأ بواسطة الماضي، ولكن لا الماضي الذي كان بالفعل، بل الماضي كما كان ينبغي أن يكون. وبما أن هذا الأخير لم يتحقق إلا على صعيد الوجدان صعيد الحلم، فإن صورة المستقبل الآتي ظلت هي نفسها صورة المستقبل - الماضي ولذلك تراه يستعيد الصراع الأيديولوجي الذي كان في الماضي وينخرط فيه منافحا ومناضلا، لا يكتفي بخصوم الماضي، بل يبحث له عن خصوم في الحاضر والمستقبل.⁽¹⁾

أمام هذا النص الجابري الذي يتجلى فيه النقد الأيديولوجي بقوة، يمكن القول أن المنهج السلفي هو مجرد أيديولوجيا، تحاول أن تعيش ماضيها الغابر بكل جوارحها، وتتطلع إلى تشييد " يثرب جديدة " التي تتصور أنها تفككت مع الزمن، وبالتالي منهج كهذا يرى بنور الماضي الذي يعتبره مقدسا، وفترة زمنية مثالية يريد إستئنافها مجددا لأنها بمثابة الحلم الذي يراوده في كل لحظة يعيشها.

¹ - الجابري محمد عابد، نحن والتراث "قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي"، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط6، 1993، ص: 13.

ولا نجد هذا الكلام عند الجابري فقط، بل إن نصر حامد أبو زيد ذهب إلى أكثر من ذلك عندما يتهم أنصار المنهج السلفي بأنهم اعتنوا بمسألة الخطاب الديني المنتج، أكثر من الدين نفسه، بل والأخطر من هذا أن المنهج السلفي أصبح يزعم امتلاكه وحدة الحقيقة، ولا يقبل الخلاف في الرأي إلا ما كان في الجزئيات، فكان هذا التوجه يؤسس للتطرف والتشدد في الأحكام والرؤى الدينية والدينيوية لأنه يزعم أن الإسلام سلب منه، وفي المقابل تمّ عزله وإقصاؤه عن حركة الواقع، وبالتالي فمنهج كهذا لا يعدو أن يكون منهجيا نصيا يؤسس لثقافة الإنغلاق والتمركز حول الذات.⁽¹⁾

وعليه يقف صاحب "نقد الخطاب الديني" هو الآخر موقفا سلبيا من الاتجاه السلفي الذي يعتبره منغلق يؤسس للتعصب المذهبي، ولا يفتح باب الإجتهد إلا في المسائل العرضية، كونه عقل نصوصي فإنه يظل قابعا تحت ويلات النصوص التاريخية، فهذا الإتجاه اذا، لا يمكنه تحقيق حداثة بالنسبة للذات العربية، لأنه يفتقد إلى النظرة الموضوعية للمسائل الاجتماعية الراهنة للإنسان العربي المسلم، كما أنه يؤسس لثقافة الخلاف لا الإختلاف، وثقافة اللاتسامح بدل الحوار وتقبل الآخر، ينعكس هذا كما لاحظنا من خلال التعصب للموروث الذي يعتبر الإطار المرجعي الذي لا محيد عنه.

ومنه لا يمكن تحقيق حداثة عربية بعقل مستغرق في الماضي الغابر، ولا يمكن الإعتماد على هذا المنهج للخروج بالعقل العربي من حالة الركود إلى

¹ - أبو زيد نصر حامد، نقد الخطاب الديني، دار سيناء للنشر، القاهرة، مصر، ط2، 1994، ص:

حالة اليقظة. وهناك منهج آخر وتوجه جديد أخذ يزاحم التوجه السلفي، يتعلق الأمر بـ: **الإتجاه الماركسي: "العقل اليساري"**

هو صورة أخرى تدعي أنها الأقرب إلى قلب الإنسان العربي المتطلع إلى غدّ أفضل، والمتطلع إلى تحقيق نهضة وثورة فكرية وانقلاب جذري، نحو الحداثة والتحديث. فالمنهج الماركسي يعي بتبعيته للماركسية ويفاخر بها، فالمادية التاريخية التي تحاول هذه الصورة اعتمادها كمنهج "مطبق" وليس كمنهج "للتطبيق" مؤطرة داخل إطار المركزية الأوروبية. ذلك أن هذا المنهج يحاول قراءة التراث عبر أدوات ماركس التي أنتجها، معلنين أنها أدوات صلبة كفيلة وحدها بقراءة التراث على النحو المطلوب، النحو الذي يجعله معاصرا لنا، لكن ما جعل الجابري يرفض هذه القراءة، ويبين محدوديتها كونها اعتمدت على آليات ماركس كمنهج مطبق معلنة تبعيتها للضفة الأخرى، وبالتالي هي تقرأ التراث وتتعامل معه من رؤية مركزية كتلك الرؤية التي تصدر عن المنهج الإستشراقي.⁽¹⁾

فالماركسيون إذاً تبنوا كل المبادئ والمضامين التي بنيت عليها الماركسية، لدرجة أنهم كانوا أوفياء لتلك المبادئ أكثر من الماركسيين الأوروبيين أنفسهم، وأسقطوا تلك القواعد والمبادئ على التراث إسقاطا تعسفيا، أفقد التراث بنيته ونسقه الكلي، وعليه فبدلاً من التفكير في الحداثة، أصبح العقل العربي يعيش حالة التشرذم والتخبط، مرة في كيفية قراءته للتراث، ومرة في البحث عن الأدوات التي من خلالها وبواسطتها تتمكن من فهم هذا التراث فهما موضوعيا.

¹ - الجابري محمد عابد، التراث والحداثة "دراسات ومناقشات"، المصدر السابق، ص: 29.

وعليه أصبحت مهمة الماركسي تعيين الأطراف وتحديد المواقع، وخلق صراع مفتعل داخل التراث العربي الإسلامي، وإذا استعصى على الفكر اليساري العربي القيام بهذه المهمة بالشكل المطلوب وهذا ما حدث، ألقى باللائمة على التاريخ العربي غير المكتوب، أو تذرع بصعوبة التحليل أمام هذا التعقيد البالغ الذي يتصف به تاريخنا، وفي هذه الحالة فإذا لم يسعفهم الصراع الطبقي قالوا بالتواطؤ التاريخي وإذا لم يجدوا مادية قالوا بالهرطقة.⁽¹⁾

يخلص الجابري من هذا أن المنهج الماركسي عاجز عن استيعاب التراث وفهمه، كونه يسقط جملة من المفاهيم الجاهزة على نصوص التراث، فيخل ذلك بالتراث وتهدر قيمته، وعليه فهذه القراءة تفقد المصدقية في نتائج أبحاثها، وبالتالي هي قراءة غير منتجة وسلفية مقلدة لا غير، وفي هذا يقول الجابري: " .. وبالتالي تصبح هذه القراءة اليسارية العربية للتراث العربي الإسلامي سلفية ماركسية، أي إلى محاولة لتطبيق طريقة تطبيق السلف الماركسي للمنهج الجدلي، وكأن الهدف هو البرهنة على صحة المنهج المطبق، لا تطبيق المنهج، ذلك هو السر في قلة إنتاج هذه القراءة وضعف مردوديتها".⁽²⁾

وعليه لا يمكن أن نؤسس لحداثة عربية إسلامية من خلال تتبع هذا المنهج، الذي يقوم على تزييف الحقائق، فمثلا في كتاب حسين مروّة " النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية " فإننا نجد مشروع ماركسي صارخ، ونية حقيقية أعلن عنها في المقدمة تدعو إلى تبني مفاهيم وآليات

¹ - الجابري محمد عابد، نحن والتراث "قراءات معاصرة لتراثنا الفلسفي"، المصدر السابق، ص: 15.

² - المصدر نفسه، ص: 16.

المنهج المادي التاريخي الذي يكفل - حسب صاحبه - معرفة مراحل تاريخ الفلسفة، ويساعدنا على كشف المحتوى المادي التقدمي للفلسفة الإسلامية، إذ يحاول هذا الأخير كشف النزعات المادية التي أهملتها الدراسات السابقة داخل تراثنا، إنطلاقاً من كونها نتاج عملية تاريخية جدلية.⁽¹⁾

وعليه لا يمكن التعويل على منهج كهذا، لأنه يدعي الثورة والتغيير لكن سرعان ما يتهافت لأنه يسيء التصرف في نصوص التراث، فهو يقوم بعملية تمويه القارئ على أساس إلزام العلمية في الطرح، كونه يوظف مفاهيم إجرائية، لكن في الأخير تظهر تعثراته الأيديولوجية، وهنا يتبين لنا الفقر الأبيستيمولوجي لهذا الإتجاه.

وهكذا يبين لنا رائد العقلانية في الوطن العربي أن هذه المناهج والاتجاهات على اختلاف مشاربها وتوجهاتها وانتماءاتها الأيديولوجية لم تحقق قراءة موضوعية للتراث العربي الإسلامي، فبدلاً من الإهتمام بقضايا التراث والإنخراط فيه نقداً وتوجيهاً، نجد المنهج السلفي يتماهى في جزء من التراث، التراث الذي يريده هو فقط ويخدم مصالحه وتوجهاته، أما بالنسبة للاتجاه المادي فقد أنهك التراث ونصوصه وجعله غريباً عن أهله، وافتعل الصراع داخله لا لثيء واحد، إنما للبرهنة على صدق المقولات الماركسية لا غير.

وعليه فالأزمة أعمق من محاولة بسيطة لقراءة التراث على النحو المطلوب، الأزمة هي أزمة تفكير إنها أزمة ذهنيات وبالتالي علينا إعادة النظر في العقل

¹ - عبد اللطيف كمال، في الفلسفة العربية المعاصرة، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية، القاهرة، مصر، ط1، 1993، ص: 83.

العربي من جديد، وهذا ما سعى إليه الجابري من خلال مشروعه في نقد العقل العربي.

إعادة بناء العقل العربي من جديد: "العقل الأبيستيمولوجي"

في إطار البحث الدائم عن الحداثة والنهضة العربية، هناك دعوات متجددة إلى البحث في المناهج التي تساعدنا على فهم التراث وقضاياها التي لم نفضل فيها إلى اليوم، ويحاول الجابري تجاوز القراءات التراثية للتراث " القراءة السلفية " التي لا تظيف شيئا للذات ولا للموضوع، ويقترح في مقالته المنهجية الإعتماد على مناهج ومفاهيم مستمدة من حقول معرفية متنوعة ومعاصرة لنا، يهدف بناء أطروحات واضحة عن تراثنا للوصول إلى نتائج إجرائية أبيستيمولوجية، وذلك هو الهدف من استعارة هذه المفاهيم وتبيئتها على النحو المطلوب، على النحو الذي يجعلها منتجة.

ولعل أول مفهوم يجب أن نحسم فيه موقفنا هو مفهوم **العقل** وهو مفهوم يشد الإنتباه كونه مقدمة أساسية لكل حداثة وتحديث، لكنه أيضا من المفاهيم المضطربة نظرا لتنوع استعمالاته، فأحيانا يُقصد به الفكر، وأحيانا أداة للفكر وغيرها من الإستخدامات المشروعة وغير المشروعة لهذا المفهوم.

والجابري يستخدم العقل كمفهوم نظري قابل وظيفيا لمنحه صفات قومية مثل: (العقل العربي، العقل اليوناني، العقل الشرقي، العقل الغربي..) أو منحه صفات اجتماعية وسياسية وثقافية مثل: (العقل السياسي، العقل

الاجتماعي، العقل القومي..) فالعقل حسب الجابري هو الفكر بوصفه أداة للتفكير إنه ليس شيئاً آخر غير مفاهيمه وأدواته.⁽¹⁾

العقل إذا هو الآلية التي تنظم المعرفة والفكر معاً، أي أنه منظومة من قواعد وأساليب وأشكال إنتاج الوعي والممارسة والسلوك، تتحقق على شكل بنية تكوينية لها خصائصها المتجانسة، فعقلانية الجابري ماهي إلا عقلانية نسقية توصيفية مؤطرة.

ويفرق الجابري بين عقليين اثنين: عقل مكوّن و عقل مكوّن، وهذا التمييز هو نفسه الذي أقامه الأيبستيمولوجي الفرنسي "لاند" بين العقل المكون أو الفاعل، والعقل المكون أو السائد، فالأول يقصد به النشاط الذهني الذي يقوم به الفكر حين البحث والدراسة، والذي يصوغ المفاهيم، ويقرر المبادئ، أما الثاني فهو مجموع المبادئ والقواعد التي نعتمدها في استدلالنا، وهي على الرغم من كونها تميل إلى الوحدة فإنها تختلف من عصر لآخر.⁽²⁾

ويبرر الجابري سبب اعتماده على هذا التصنيف بقوله: " لقد اخترنا ربط العقل العربي بالثقافة التي ينتمي إليها، الثقافة التي أنتجته ويعمل هو على إعادة إنتاجها، ومعنى ذلك أننا ننظر إلى العقل بوصفه عقلاً مكوّنًا حسب تعبير لاند أي فاعلية منتجة لثقافة، وعقلاً مكوّنًا أي مجموعة المبادئ

¹ - عيد عبد الرزاق، أزمة تنوير "شرعنة الفوات الحضاري"، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1997، ص: 91.

² - الجابري محمد عابد، نقد العقل العربي (1) "تكوين العقل العربي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط10، 2009، ص: 15.

والقواعد الفكرية المؤسسة لتلك الفاعلية، والتي تشكل في الوقت ذاته القاعدة الأبيستيمولوجية لتلك الثقافة أو نظامها المعرفي⁽¹⁾.

وما يخلص إليه الجابري من هذا التمييز بين هذين العقلين هو القول بأن العقل العربي هو العقل المكوّن، أي جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية الإسلامية للمنتميين إليها وعليه يمكن القول أن هناك عقلين متمايزين: عقل مكوّن " غربي " وعقل مكوّن " عربي " .

هذا التمييز بين العقول مهم وفعال في مشروع الجابري المنهجي في الأساس، حتى نعيد بناء عقلنا العربي من جديد، ونساهم في جعله عقلا منفتحا وناقدا للتراث بعيدا عن التطرف والغلو في الأحكام وقريبا إلى الموضوعية والأحكام الأبيستيمولوجية.

وعليه يمكن القول أن مشكلة الجابري مع التراث ليس مشكلة معرفية بالدرجة الأولى، وإن كان قد أسهم في تحقيق وإعادة نشر نصوص التراث، إنما مشكلته مع التراث مشكلة منهجية، وهذا ما جعله يلح في كل ما كتب على أن التجديد لا يمكن أن يحدث إلا من داخل التراث نفسه، وذلك باستملاكه استملاكاً نقدياً منهجياً، ذلك أن واقع حالنا اليوم يشي بأننا لا نفكر في التراث، وإنما التراث ييفكر فينا، وأننا لا نتكلم في التراث، وإنما التراث يتكلم فينا، وعليه يجب أن ننتقل من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث، ولا

¹ - الجابري محمد عابد، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1990، ص: 58.

يكون هذا إلا عبر عقل ناهض، فلا يمكن تحقيق نهوض وحداثة بدون عقل ناهض.⁽¹⁾

إن عملية التحديث داخل الأمة العربية الإسلامية تستوجب عقلاً ناهضاً، له طريقة جديدة في التفكير ومسار منهجي جديد قادر على إعادة بناء الماضي وترتيبه، وكشف الجانب المضيء فيه لاستثماره مجدداً في زماننا هذا. وقد سال حبر كثير في هذه المسألة بالذات التي أخذت مسميات عديدة كالتحديث والحداثة أو النهضة، إذ يعتبر هذا الأخير الهاجس الذي كان ولا يزال يؤرق الأمة العربية، فقضية النهضة تعتبر من المهام التي ندب الفكر العربي الحديث والمعاصر نفسه لها، سواء من خلال مشاريع الإصلاح الديني أو الثقافي أو السياسي أو الاجتماعي..

ويدشير الجابري أن مفهوم النهضة مفهوم مضطرب هو الآخر كما رأينا مع مفهوم الحداثة، وهو مصطلح جديد في اللغة العربية، أو هو مشروع جديد لم يكتمل بعد حتى على صعيد التصور الذهني، الشيء الذي يسمح بتسميته بأسماء مختلفة حسب الظروف والأحوال، فهو تارة **نهضة** أو **يقظة**، وهو تارة **بعث** أو **ثورة** وهذا الاضطراب ليس ناتجاً عن فقر في الترجمة للمصطلح الفرنسي Renaissance الذي يعني لغويًا ميلاد جديد، بل ناتج في نظر الجابري إلى فقر في مفهوم النهضة لدى المفكر العربي نتيجة أن مفهوم النهضة تشير لديه لا إلى واقع محقق، بل إلى واقع مأمول التحقيق، فعندما

¹ - الشيخ محمد، محمد عابد الجابري "مسارات مفكر عربي"، المرجع السابق، ص: 23.

يتحدث العرب عن النهضة أو الثورة فإنما يتحدثون عن مشروع لم يتحقق
بعد.⁽¹⁾

وتوحي بعض استعمالات النهضة أو الحداثة داخل أدبيات الفكر العربي
بنوع من المماثلة بينه وبين مفهوم النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر،
وهي النهضة أو الحداثة التي ارتبطت بأدبيات فلسفة الأنوار، ومبادئ الثورة
الفرنسية وما ترتب عنها في مجال التاريخ والسياسة، ويوظف مفهوم النهضة
كشعار معبر عن الطموحات التاريخية للمجموعة العربية في التقدم، ومعنى
هذا أن فكرة النهضة مجرد يوتوبيا.⁽²⁾

بمعنى أن المجتمع العربي حاول الإستفادة من التجربة النهضوية الأوروبية
الناجحة على كل المستويات السياسية والإقتصادية والاجتماعية والتربوية،
لكن ما حدث هو مجرد شعارات وخيبات أمل متوالية، لدرجة أن الحديث
عن النهضة أصبح أمرا مملا وساذجا، وعليه أصبح مشروع النهضة العربية
مجرد حلم مثالي بعيد كل البعد عن واقع الذات العربية المعاصرة التي تشهد
حالة من التفكك والتشردم.

إذ وبعد مائة عام من الحديث عن النهوض من هذا السبات الذي تعاني
منه الأمة، لم يتغير شيء لم نتجاوز إلى اليوم حالة التخلف والإنحطاط الذي
ترجع على عرش هذه الأمة، بل إن الفجوة الحضارية بين الأنا والآخر في تزايد
مستمر، مما دفع بنا إلى طرح المزيد من الأسئلة الجريئة، للحفاظ على هويتنا
من الضياع والانقراض، ومحاولة الإستنهاض مجددا، وذلك حتى تسترجع

¹ - الجابري محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر "دراسة تحليلية نقدية"، مركز دراسات الوحدة
العربية، بيروت، لبنان، ط5، 1994، ص: 21 - 22.

² - عبد اللطيف كمال، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر، المرجع السابق، ص: 17.

هذه الأمة أمجادها وبطولاتها التي شيّدها ابن رشد، وكان شاهداً على تدهورها وانحطاطها ابن خلدون.

وينطلق الجابري من خلال رؤيته للخطاب النهضوي العربي الى القول بأنه كلما تعمق وعي العرب بالانحطاط، إرتفع مستوى طموحهم النهضوي، وهذا يدل أساساً على أن وعي النهضة عند العرب يقوم على الإحساس بالفارق، الفارق بين واقع التخلف والانحطاط الذي يعيشونه، وواقع النهضة الذي يقدمه لهم أحد النموذجين: العربي الإسلامي في الماضي، والأوروبي في الحاضر.⁽¹⁾

من هنا ينتقد الجابري الخطاب النهضوي العربي وذلك لكونه يفكر خارج واقعه، أي من خلال نموذج جاهز، ولكنه أخذ في الابتعاد عنه باستمرار، فمثلاً النموذج العربي الإسلامي الذي يزداد مع الوقت توغلاً في الماضي، بالشكل الذي يجعل التفكير فيه يفقد أسبابه الموضوعية، والنموذج الغربي الذي يتوغل في المستقبل، بالشكل الذي يجعل الأمل في اللحاق به يتضاءل أمام التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي يشهده العالم.⁽²⁾

على هذا الأساس يبدو أن الطريق الذي سلكه رواد النهضة والإصلاح في الوطن العربي كان طريقاً مسدوداً، وذلك في تقدير الجابري لأنهم يفكرون بعقل غير عقلهم، إما عقل ماضوي يدعي الأصالة في تفكيره ونتائجه ومسلماته ومنطلقاته، وإما عقل يزعم أنه حادثوي تجديدي يواكب ويساير العقل الغربي من ناحية التفكير، على هذا الأساس فإن ما وصل إليه أولئك

¹ - الجابري محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، المصدر السابق، ص: 23.

² - المصدر نفسه، ص: 24.

المفكرين الذين حملوا على عاتقهم مسؤولية ما يحدث للأمة العربية الإسلامية من أزمة، لم يقدموا لها شيئاً يجعل من الحلم - حلم النهضة - واقعا.

وفي هذا الصدد يقول صاحب " نحن والتراث " : " من هنا تلك الثغرة الواسعة والعميقة في وعي العرب بالهضبة، الثغرة التي تجعل وعيهم هذا مجرد إحساس بالفارق، أي حصيلة مقارنة ومقايضة لا حصيلة تحليل وممارسة، إن غياب تحليل الواقع - واقع الإنحطاط - وعدم الإنطلاق من هذا التحليل لبناء نموذج مطابق يرتبط فيه ابتداء النهضة بالوعي ببدايتها، هو السبب في ذلك التضخم في الطموح النهضوي العربي، التضخم الذي يقفز على الواقع ويلغي الزمان والمكان ويجعل، بالتالي علاقتهم مع أحد النموذجين تتحول الى الحلول محله الى تقمصه والإحتماء به " (1).

وعليه يجب أن نفكر في النهضة من باب العقلانية لا الحلم، وذلك انطلاقاً من تحليل وتشخيص واقع الأمة العربية، بدلا من التفكير فيه انطلاقاً من سراب الحلم وهو واجسه حتى نصل إلى مبتغانا المنشود وهو تحقيق الحداثة على أرض الواقع والإلتحاق بمجرى الحضارة، ولعل البديل الذي يقدمه الجابري في هذه المسألة هو ضرورة إعادة قراءة التراث من منظور نقدي تجاوزي، وإعادة بناء العقل مجدداً يؤشر على إمكانيات تحول كبيرة في وعي النهضة العربية، وقد يُتاح لنا مستقبلاً تخطي وتجاوز كل العوائق التي منعتنا من تحويل الوعي النهضوي إلى نهضة فعلية.

¹ - الجابري محمد عابد، الخطاب العربي المعاصر، المصدر السابق، ص: 36.

على هذا الأساس كان النقد الموجه لخطاب وفكر النهضة الأولى هو أنه فكر لم يتبياً مع واقعه، إذ كان الفكر مستقلاً عن الواقع حسب الجابري، لكن مع هذا الأخير أصبح الهدف واضحاً يتمثل في تكييف الحاضر مع التراث عبر جواز سفر إيبستيمولوجي، فكانت القراءة المنهجية للجابري بمثابة تحدٍ للحظة الهزيمة التي بدأت عام 1967 وبعث فكر نهضوي جديد.⁽¹⁾

لقد حاول الجابري أن يفكر من خلال واقعه، أو بالأحرى من خلال واقع الذات العربية وذلك للوصول إلى نهضة شاملة، ولا يكون هذا إلا عبر سلاح النقد الموجه إلى خطاب النهضة الأولى، وإضفاء المعقولية على التراث العربي الإسلامي، عبر إعادة قراءته، ووفق منهج ورؤية جديدين، ولعل الحرص الشديد على تبني العقلانية، والإهتمام بالعقل الذي يوليه الجابري أهمية خاصة، لهُو دليل على محاولة جادة لتحقيق حداثة فكرية، ثم نهضة ويقظة للأمة العربية الإسلامية، هذه الأمة التي هي بحاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى إلى أحفاد ابن رشد وابن خلدون وابن باجه، ولعل الجابري نصّب نفسه خليفة لابن رشد بل وحفيد شرعي وورث العقلانية الرشدية التي لطالما دافع عنها باعتبارها المدخل إلى الحداثة العربية الإسلامية، وهذه هي مهمة النخبة في المجتمع باعتبارها أداة تفكير وتغيير معاً.

من هنا فإن مهمة العقل الناهض عند الجابري هي أن نجعل الحلم بالنهضة مطابقاً بقدر الإمكان إلى الواقع، وأن يطرح هذا الحلم في حدود الإمكان، الإمكان التاريخي، وحتى الإمكان المنطقي، ذلك أن الخطاب النهضوي

¹ - عيد عبد الرزاق، أزمة تنوير "شرعنة الفوات الحضاري"، المرجع السابق، ص: 58.

العربي المعاصر يحتاج إلى ضرورة العقلنة والوعي بالذات، ولا يمكن تأسيس عقل جديد إلا من خلال بعث الروح النقدية.⁽¹⁾

الالتزام بالنقد والإنفتاح عليه وفتح باب الإجتهد الذي ظل موصودا لمدة من الزمن، هو السبيل الوحيد للنهوض بهذه الأمة العربية، وتخليصها من هذا الإنحطاط الذي لازمها، ولا يكون هذا إلا بتجاوز القراءات والخطابات المؤدلجة التي طغت على الساحة الفكرية العربية المعاصرة. لكن هل يكفي هذا لتحقيق النهضة ؟

الخاتمة :

يبدو واضحا أن الفشل لازم مشروع النهضة الأولى والثانية معا، فكل أحلامنا وإن تعددت الرؤى التي سطرتهما باءت بالفشل وأخفقت إخفاقا مريرا، فبدلا من البحث في معوقات النهوض العربي وتشخيص الحالة المتعفنة التي باتت تشهدها هذه الأمة، في مختلف المجالات (السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والتربوية التعليمية) وطرح المزيد من أسئلة التنوير والمناهج من قبل النخبة التي تعتبر أداة تفكير وتغيير في نفس الوقت، استيقظنا في الأخير ومع مطلع 2011 على وقائع وأحداث لم يكن يحسب لها المثقف العربي الباحث عن النهضة حسابا، وذلك في سياق ما بات يعرف بالثورات والانتفاضات العربية.

فالأحداث تلك غيرت في الكثير من معطيات مشهد السياسة والسلطة، وتوازنت القوة في المجال العربي، فكان سقوط أنظمة، وصعود نخبة جديدة، غير أن هذه لم تكن وحدها النتيجة التي أفضى إليها الحراك الثوري

¹ - الجابري محمد عابد، التراث والحداثة "دراسات ومناقشات"، المصدر السابق، ص: 243.

والاحتجاجي العربي، وإنما تلازمت معها أشكال أخرى من الفوضى والحروب الداخلية في البلاد العربية، كل هذا أعاق طريق النمو والتقدم في الوطن العربي، فأخذته إلى اتجاهات لم تكن متوقعة، وأدخلت معه البلاد العربية إلى المجهول.⁽¹⁾

إن مساعي تحقيق النهضة تبخرت كلها، إذ ورغم أنه تم تشخيص واقع الأمة العربية، ورغم تنوع وتعدد المشاريع الفكرية النهضوية، إلا أن لعنة الفشل والانحطاط أصبحت تلازم هذه الأمة، وعلى الرغم من أننا بحثنا مطولا عن التركيبة العقلية التي يتميز بها الكائن العربي، إلا أن النتائج الأخيرة حطمت كل ذرة أمل كانت تراود المثقف العربي، الذي أصبح شاهدا على ضياع وطنه، تحت ويلات الحروب والدمار الذي اصطلح عليه بالربيع العربي، وهكذا أصبح مصير الأمة العربية مصيرا مجهولا بامتياز، وكأنه قُدر على هذه الأمة أن تعيش الخيبة وراء الخيبة، والنكسة وراء النكسة.

وفي الأخير علينا أن نعتزف لأنفسنا كأمة عربية إسلامية، أنه لدينا تجربة ضئيلة جدا في مجال الحداثة والتحديث، إذ ورغم تشخيص حال هذه الأمة، ورغم عقلنة مختلف التصورات والمباحث التراثية، إلا أن كل هذا لم يشفع لهذه الأمة التي ظلت قابضة في التخلف والوهن، ولعل الحديث عن الحداثة استنفذ لأنه أصبح كما أشرنا سلفا مجرد يوتوبيا، مجرد خيال، أو حلم غير قابل للتحقيق.

قائمة المصادر والمراجع

¹ - بلقيز عبد الإله، ثورات وخبوات "في التغيير الذي لم يكتمل"، تقديم: محمد الحبيب طالب، منتدى المعارف، بيروت، لبنان، ط 1، 2012، ص: 19.

أولا / قائمة المصادر:

أ-الكتب:

- 1-محمد عابد الجابري ، الخطاب العربي المعاصر "دراسة تحليلية نقدية" ، ط5 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1994.
- 2-محمد عابد الجابري ، إشكاليات الفكر العربي المعاصر ، ط2 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1990.
- 3-محمد عابد الجابري ، نقد العقل العربي (1) "تكوين العقل العربي" ، ط10 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 2009.
- 4-محمد عابد الجابري ، نحن والتراث "قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي" ، ط6 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1993.
- 5-محمد عابد الجابري ، التراث والحداثة "دراسات ومناقشات" ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، 1991.

ثانياً / قائمة المراجع :

أ-الكتب:

- 1-عبد العزيز التويجري ، التراث والهوية ، (د. ط) ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط ، المغرب ، 2011.
- 2-عبد الرزاق عيد ، أزمة تنوير "شرعنة الفوات الحضاري" ، ط1 ، دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق سوريا ، 1997.
- 3-عبد الإله بلقزيز ، ثورات وخيبات "في التغيير الذي لم يكتمل" ، ط1 ، تقديم: محمد الحبيب طالب ، منتدى المعارف ، بيروت ، لبنان ، 2012.

- 4-كمال عبد اللطيف ، مفاهيم ملتبسة في الفكر العربي المعاصر ، ط1 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 1992.
- 5-كمال عبد اللطيف ، في الفلسفة العربية المعاصرة ، ط1 ، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ، القاهرة ، مصر ، 1993.
- 6- محمد الشيخ ، محمد عابد الجابري "مسارات مفكر عربي"، ط1 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، 2011.
- 7-أبوزيد نصر حامد، نقد الخطاب الديني ، ط2 ، دار سيناء للنشر ، القاهرة ، مصر ، 1994.